وإن تخلُ من الحور إلى البرد ، وسيف الردى عليك منيف ،
يا قليل المقام في هذه الدنيا ، إلى كم يغرك التسويف ،
يا طالب الزائل حتى متى ، قلبك بالزائل مشغوف ،
عجبا لامرئ يذل لذي الدنيا ، ويكفيه كل يوم رغيف ،

مجلس في التوبة والحث عليها قبل الموت وخاتمة العمر وأن التوبة وظيفة العمر وهي خاتمة مجالس الكتاب

خرّج الإمام أحمد والترمذي وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر وقال الترمذي حديث حسن ودل
هذا الحديث على قبول توبة الله لعبده ما دامت روحه في جسده لم تبلغ الحلقوم والتراقي
وقد دل القرآن على مثل ذلك أيضا قال الله تعالى إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة
ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما وعمل السوء إذا انفرد
يدخل فيه جميع السيئات كبيرها وصغيرها والمراد بالجهالة الإقدام على عمل السوء وإن علم صاحبه
أنه سوء فإن كل من عصى الله فهو جاهل وكل من أطاعه فهو عالم وبيانه من وجهين
أحدهما أن من كان عالما بالله تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله فإنه يهابه ويخشاه فلا
يقع منه مع استحضار ذلك عصيانه كما قال بعضهم لو تفكر الناس في عظمة الله ما
عصوه وقال آخر كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا والثاني
أن من آثر المعصية على الطاعة فإنما حمله على ذلك جهله وظنه أنها تنفعه عاجلا
باستعجال لذتها وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلص من سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره
وهذا جهل محض فإنه يتعجل الإثم والخزي ويفوته عز التقوى وثوابها ولذة الطاعة و
قد يتمكن من التوبة بعد ذلك وقد يعاجله الموت بغتة فهو كجائع أكل طعاما مسموما لدفع جوعه
الحاضر ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب الدرياق بعده وهذا لا يفعله إلا جاهل وقد قال الله تعالى في
حق الذين يؤثرون السحر ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة
من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا
يعلمون والمراد أنهم آثروا السحر على التقوى والإيمان لما رجوا فيه من مصالح الدنيا المعجلة مع علمهم
أنهم يفوتهم بذلك ثواب الآخرة وهذا جهل منهم فإنهم لو علموا لآثروا الإيمان والتقوى على ما عداهما
فكانوا يحرزون أجر الآخرة ويأمنون عقابها ويتعجلون عز التقوى في الدنيا وربما وصلوا
إلى ما يأملونه في الدنيا أو إلى خير منه وأنفع فإن أكثر ما يطلب بالسحر قضاء حوائج محرمة أو مكروهة
عند الله

٨٦

عند الله عز وجل والمؤمن المتقي يعوضه الله خيرا مما يطلبه الساحر ويؤثره مع تعجيل عز
التقوى وشرفها وثواب الآخرة وعلو درجاتها فتبين بهذا أن إيثار المعصية على الطاعة
إنما يحمل عليه الجهل ولذلك كان كل من عصى الله جاهلا وكل من أطاعه عالما وكفى بخشية
الله علما وكفى بالاغترار به جهلا وأما التوبة من قريب فالجمهور على أن المراد بها
التوبة قبل الموت فالعمر كله قريب والدنيا كلها قريب ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب ومن
مات ولم يتب فقد بعد كل البعد كما قيل: فهم جيرة الأحياء أما مزارهم ، فدان وأما
الملتقى فبعيد ، فالحي قريب والميت بعيد من الدنيا على قربه منها فإن جسمه في الأرض يبلى
وروحه عند الله تنعم أو تعذب ولقاؤه لا يرجى في الدنيا .

مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ، لقاؤك لا يرجى وأنت قريب ،
تزيد بلى في كل يوم وليلة ، وتنسى كما تبلى وأنت حبيب ،

وهذان البيتان سمعهما داود الطائي رحمه الله امرأة في مقبرة تندب بهما ميتا لها
فوقعا من قلبه موقعا فاستيقظ بهما ورجع زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة وانقطع
إلى العبادة إلى أن مات رحمه الله فمن تاب قبل أن يغرغر فقد تاب من قريب فتقبل
توبته روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ثم يتوبون من قريب قال قبل المرض والموت وهذا إشارة
إلى أفضل أوقات التوبة وهو أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به
حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح ولذلك قرن الله التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة
من القرآن وأيضا فالتوبة في الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة ورجاء
البقاء والتوبة في المرض عند حضور أمارات الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت
فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استغرق صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه و
لذات دنياه فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ وترك ما كان عليه فأين
توبة هذا من توبة من يتوب وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي فيتركها خوفا
من الله عز وجل ورجاء لثوابه وإيثارا لطاعته على معصيته . دخل قوم على
بشر الحافي رحمه الله وهو مريض فقالوا له ماذا أعزمت قال عزمت على أني إذا عوفيت تبت
علم